Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 13-14:2-3-4-1 (1978-1979)

حقيقة العبادة

الاستاذ القاضي محمد مبارك
قسم اللغة العربية
جامعة بشاور

العبادة لغة الطاعةوالذل، وقال الجوهرى :''العبادة الطاعة، والتعبد التنسك(١)

''وقال الفيروز آبادى : ''العبدية والعبودية والعبادة : الطاعة(٢)، وذكر ابن فارس المتوفى (٣٩٥ھ) : ''العين والباء والدال اصلان صحيحان كانهما متضادان، والاول من ذينك الاصلين يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ، و من الاول العبادة، و من هذا الباب البعير المعبد أى المهنوء بالقطران — و هذا ايضا يدل على ماقلناه لان ذلك يذله و يخفض منه والمعبد الذلول يوصف به البعير ايضا(٣) .

تقسيم العبادة :

العبادة قسمان، القسم الاول العبادة التكوينية، والثانى العبادة التشريعية . فالعبادة التكوينية هى طوع وانقياد المخلوقات من السموات وما فيها والأرض و من عليها من الحيوانات والنباتات والجمادات و غيرها لمشيئة ربها وقدره، فما شاء منها ربها و خالقها كان، شاءت أولم تشأ ، وماشاءته، ان لم يشأه لم يكن (٤) هذه العبادة تعم الابرار والفجار، والمؤمنين والكفار ، واهل الجنة واهل النار، لان الله تعالى ربهم و مليكهم و خالقهم ورازقهم و محييهم و مميتهم و مقلب قلوبهم و مصرف امورهم، لايخرجون عن مشيئته و قدرته سواء اعترفوا بذلك او

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

انكروه، و سواء علموا ذلك او جهلوه(٥). والى هذه العبادة تشير الآية الكريمة : وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا و كرها واليه يرجعون(٦).

هذا القسم من العبادة مالم تلتحق معها العبادة التشريعية التى سوف نبين حقيقتها لا تكون منجية لصاحبها من النار. فهذا ابليس يعترف بربوبية الله تعالى التى تتعلق بها هذه العبادة والعبودية، كما يقول القرآن الكريم فى شأنه : ''رب أنظرنى الى يوم يبعثون،،(٧) ''رب بما اغويتنى لازينن لهم ولاغوينهم اجمعين،،(٨) فهو يعترف بربوبية الله تعالى التى هى منشأ العبادة التكوينية، ولكن ليس معها العبادة التشريعية بل ضدها وهو الفسوق والعصيان، كما يلمح هذا المعنى من كلمة ''لاغوينهم،، فجزاؤه و جزاء من تبعه النار(٩).

والعبادة التشريعية فحقيقتها وما هيتها هى اقصى غاية الخضوع والتذلل الناشى عن استشعار القلب بالعظمة والمحبة الكاملة للمعبود مع الاعتقاد بان للمعبود سلطة فوق الاسباب يقدر بها على النفع والضرر(١٠). فمن خضع لانسان حتى بلغ الى الانتهاء فيه الى تقبيل موطئ اقدامه، لكن ليس معه الحب، لا تكون هذه عبادة، و كذلك لو احب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له كما قد يحب ولده و صديقه ففى العبادة يجب ان يكون الله أحب الى العبد من كل شئ. وان يكون الله عنده اعظم من كل شئ، وانه هو الذى يستحق المحبة والذل التام. فكل ما احب لغير الله تعالى فمحبته فاسدة، وماعظم بغير امر الله كان تعظيمه باطلا(١١). كما يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : قل ان كان آباؤكم وابناءكم واخوانكم وازواجكم و عشيرتكم و اموال اقترفتموها و تجارة تخشون كسادها و مساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله و جهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره(١٢).

و نلخص مما سبق ان العبادة لا تتم الا باتباع احكام الله فى كتابه، والانقياد لسنن الله فى كونه . و ذلك ما يتطلب منا الجهاد فى سبيل الله، وهو كما قال الامام ابن تيمية رحمه الله : الاجتهاد فى حصول ما يحبه الله تعالى من الايمان والعمل الصالح و من دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان(١٣) . و حيث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قدوة لنا فى العبادة يجب علينا اتباع الرسول فيما جاءبه، والجهاد فى سبيله . ان العبادة تتضمن معنى الدين لاشتماله على معنى الخضوع والذل، يقال دنته فدان اى اذللته فذل . و يقال ندين الله و ندين لله اى نعبد الله و نخضع له(١٤) .

فدخل فى دائرة العبادة كل عمل يفعله العبد لحب الله وطلب رضاه سواء كان ذلك العمل كبيرا فى المنظر ام لم يكن وسواء كان فى حصوله تجشم التكليف و نصب للبدن والجسم ام لا، و سواء كان فيه ذهاب مال او يكون غير محتاج الى انفاق فلس، حتى ان اكل الطعام واشباع البطن بالطيبات من الرزق و اداء الشكر عليه قد عده الله تعالى من العبادة(١٥)، حيث قال : ''يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون(١٦) و جعل المعروف من القول وصفح المرء عمن قد جنى عليه و آذاه عبادة وادخلهما فى الصدقة(١٧)، حيث يقول الله فى القرآن الكريم : ''قول معروف و مغفرة خير من صدقة يتبعها اذى(١٨)،، . و قد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسيره و توضيحه : ''كل معروف صدقة، تبسمك فى وجه اخيك صدقة، واماطة الاذى عن الطريق صدقة،،(١٩)، و حتى ان العمل اليسير الصغير فى بادى النظر، كاصلاح ذات البين، و معونة الارامل والمساكين باية معونة، جعل له النبى صلى الله عليه وسلم درجة كبيرة تساوى درجة صوم النهار و سهر الليل كله بالصلواة النافلة والجهاد فى سبيل الله، وربما

تزيد و تفضل على درجة الصوم والصلواة والصدقة،(٢٠) حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ''الساعى على الارملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، وكالذى يصوم النهار و يقوم الليل،،(٢١)، ''الا اخبركم بافضل من درجة الصيام والصلواة والصدقة قالوا بلى يا رسول الله قال اصلاح ذات البين،،(٢٢) .

ان الاسلام لا يفرق بين الدين والدنيا، كما يوجد هذا الفرق فى المذاهب الاخرى، فكل الاعمال الدنيوية التى كانت تحتسب فى الاديان الاخرى اعمالا دنيوية خالصة تكون فى نظر الاسلام اعمالا دينية اذا فعلتها ابتغاء مرضاة الله وطاعته، ولا تريد به سمعة ورياء . فالاسلام يفرق بين الاعمال من جهة الغاية والنية، لا من جهة العمل نفسه(٢٣) حيث قال النبى صلى الله عليه وسلم : انما الاعمال بالنيات ولكل امرى مانوى، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ماهاجراليه(٢٤) حتى ان الصلواة التى هى من اكمل واتم صور العبادات اذا خلت من تلك الغاية والنية لم تكن عبادة بل انها بدلا من ان تقرب العبد والمصلى من الله تعالى يبعده من الله عزوجل(٢٥) .

ان هذه هى العبادة التى دعا المرسلون اليها، وهى التى نيطت بها سعادة الدارين، سعادة الاسامة فى الأرض، وسعادة الفوز بالنعيم الدائم المقيم فى الآخرة، كما يقول عزوجل : وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا، ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون(٢٦) .،،

وقد اثبت تاريخ المسلمين انهم ماداموا مهتدين بهدى القرآن العابدين لله تعالى بالمعنى الصحيح كانوا ائمة الامم، و قهروا اعظم دول الأرض المجاورة لهم، دولة الروم، و دولة الفرس .

المراجع

(١) تاج اللغة و صحاح العربية، للجوهرى، الطبع المصرى، ج : ١، ص : ٢٤٢
(٢) قاموس لفيروز آبادى، الطبع المصرى ١٩٣٨م، ج : ١، ص : ٢١١
(٣) معجم مقاييس اللغة، لاحمد بن فارس زكريا - الطبع المصرى ١٣٦٩ ج : ٤،ص : ٢٠٥
(٤) رسالة العبودية، لابن تيمية الطبع المصرى ١٣٢٣ھ ص : ٤، ٥
(٥) نفس المرجع ص : ٥
(٦) سورة آل عمران، : ٨٣
(٧) سورة الحجر : ٣٦
(٨) سورة الحجر : ٣٩
(٩) رسالة العبودية، لابن تيمية، ص : ٥
(١٠) تفسير المنار، للشيخ رشيد رضا، الطبعة الرابعة ١٣٧٣ھ، ج : ١، ص : ٥٧ وانوار التنزيل، لقاضى ناصر الدين البيضاوى، الطبع المصرى، ج : ١، ص : ٣٣ والكشاف، لجار الله الزمخشرى الطبع المصرى ١٣٦٧ھ ج : ١، ص : ٤٩
(١١) رسالة العبودية، لابن تيمية، ص : ٤
(١٢) سورة التوبه : ٢٤
(١٣) رسالة العبودية، لابن تيمية، ص : ٢٢
(١٤) نفس المرجع، ص : ٣، ٤
(١٥) سيرة النبى، للسيد سليمان الندوى، مطبع سعيدى، كراتشى، ج : ٥، ص : ٥٢
(١٦) سورة البقرة : ١٧٢
(١٧) سيرة النبى، السيد سليمان الندوى، ج : ٥، ص : ٥٢
(١٨) سورة البقرة، : ٢٦٣
(١٩) الجامع الصحيح، للبخارى، نورمحمد كراتشى، ج : ٢ ص : ٨٩٠
(٢٠) سيرة النبى، لسيد سليمان الندوى، ج : ٥،ص ٥٣
(٢١) الجامع الصحيح، للبخارى، ج : ٢ص : ٨٨٨
(٢٢) سنن ابى داؤد السجستانى، سعيدى، كراتشى، ج : ٢، ص : ٣١٧
(٢٣) سيرة النبى، السيد سليمان الندوى، ج : ٥،ص : ٥١
(٢٤) الجامع الصحيح للبخارى ج:٥، ص:٢
(٢٥) تفسير المنار، للشيخ رشيد رضا، ج : ١،ص : ٥٨
(٢٦) رسالة العبودية، لابن تيمية، الطبع المصرى، ١٣٢٣ھ ص : ١
(٢٧) سورة النور : ٥٥